تسمية الحياة في النفس وملحقاتها

و فيه فصول

الفصل الأوّل
في المزاج و المواليد الثلاثة

قد تقدّم أنّ الجسم مركّب من المادّة و الصورة الجسمية تركّباً اتحادياً.[1]

و هو بحسب ما نجد بدواً إمّا بالغٌ بطبعه في اليبوسة و الجمود و هو الارض، أو بالغٌ في البرودة و هو الماء، أو بالغٌ في الرطوبة و الميعان و هو الهواء، أو بالغ في الحرارة و هو النار،[2] و هي العناصر و الأركان و الأُسطقسات الأربعة الّتي غير ما عدّت عناصر اليوم، فإنّها نظرة خاصّة إلى الأجسام كما أنّ تقسيم الأجسام إلى المايع و الجامد و الغاز نظرة خاصّة أخرى لا تصادم تقسيمها إلى اكثر من مأة عنصر، فالأولى عدّ هذه الأربعة أنواعاً من الجسم لا عناصر حذراً من الاشتراك اللفظي و الغلط. فهناک مادّة و صورة جسمية جنسية و صور نوعية بسيطة.

و في كلّ من العناصر كيفية فعلية و كيفية انفعالية من أوائل الكيفيات الملموسة الأربعة: الحرارة و البرودة الفعليتين و الرطوبة و اليبوسة الانفعاليتين، فإنّ الأرض يابسة باردة و الماء بارد رطبٌ و الهواء رطبٌ حارّ و النار حارّة يابسة.

---

١. نهاية الحكمة، مرحله ٥، فصل ٧.

٢. شرح الإشارات و التنبيهات، الفصل ١٨، النمط ٢، تبعاً للفارابي في عيون المسائل.

و جاز أن ينقلب كلّ منها إلى ما يجاوره بحسب حيّزه الطبيعي، فإنّ الأرض تنقلب إلى الماء و بالعكس و الماء ينقلب إلى الهواء و بالعكس و الهواء ينقلب إلى النار و بالعكس، فالأرض لا تنقلب إلى الهواء إلّا بعد أن تنقلب إلى الماء و لا تنقلب إلى النار إلاّ بعد الانقلابين و هكذا؛[1] هذا إذا امتزج واحد منها مع غيره و صارت كيفيته الغالبة مغلوبة.[2]

أمّا إذا امتزج مع غيره سواء كان ذلک الغير واحداً أو أكثر و سواء كان عنصراً أو مركّباً و تفاعلا و انكسر سَورة الكيفية الغالبة في كلّ منهما و حصل الاعتدال بين الكيفيات تحقّق كيفية معتدلة في البين و هو المزاج؛ هذا عند المشهور و عند صدرالمتألّهين يمكن تحقّق المزاج بدون الامتزاج و بعنصرٍ واحدٍ.[3]

و المزاج بحسب مرتبة اعتداله و نوع تركيبه يهيّئ المحلّ لأن يقبل صورة جوهرية نوعية مركّبة، لها أثرٌ أو آثار أخرى غير ما كانت للأجزاء و هي بحسب الاستقراء ثلاثة:

الأولى: الصورة المعدنية من أضعفها كالجَصّ إلى أقواها كالمرجان القريب إلى أُفق النبات و هي صورة يترتّب عليها بعض آثار الحياة كحفظ الجسم و تركيبه عن المفسد المبطل، فهذا أثر من آثار الحياة و البقاء.[4]

الثانية: الصورة النباتية من أضعفها إلى أشرفها كالنخل[5] و هي صورة يترتّب عليها مع المحافظة على أصل التركيب، التغذية و التنمية و التوليد للمثل، فتكون حافظةً غاذيةً ناميةً مولّدةً.[6]

---

١. شرح المنظومة، ج ٤، ص ٤٢٤.
٢. الأسفار، ج ٥، ص ٣٤٤.
٣. الأسفار، ج ٥، ص ٣٢٥ و ص ٣٣٤ و ص ٣٣٥ و في رسالة المزاج من مجموعه رسائل فلسفى صدرالمتألهين، ص ٣٧١.
٤. الأسفار، ج ٥، ص ٣٤٠.
٥. الأسفار، ج ٥، ص ٣٤٤-٣٤٥.
٦. الأسفار، ج ٥، ص ٣٤١.

الثالثة: الصورة الحيوانية من أضعفها كالدودة إلى أقواها و أشرفها كالأنعام و القِرَدة،[1] و هي صورة يترتّب عليها مع ما سبق في الصورتين المعدنية و النباتية، الحسّ و الحركة الإرادية على مراتبهما إلى غاية أُفق الحيوان الّذي إن تجاوزها و قَبِل زيادةً يسيرةً خرج بها عن أُفقه و صار في أُفق الإنسان الّذي يقبل العقل و التمييز و النطق و هو أيضاً على مراتب،[2] فإنّ الناس معادن كمعادن الذهب و الفضّة.[3]

فتبيّن ممّا تقدّم أمور:

الأوّل: أنّ كلّ ما سبق و ما سيأتي من طبيعيات الفلسفة أطروحات مبتنية على تجارب حسّية صحيحة من منظر كلّي مع رعاية القوانين العقلية و هي لا تعارض الأطروحات الجديدة إلّا في بعض المجالات كعدّهم قطعة من الحجر شيئاً واحداً متّصلاً كما تُحَسّ؛ و علماء الفيزياء اليوم يعدّونها مجموعة من الذرّات بينها فواصل كالسحاب و نظرهم مبنيّ على تجارب حسّية مخالفة للتجربة الحسّية الظاهرة؛ فههنا تجربتان متعارضان، غير أنّ الفلاسفة يقولون: إنّ الامتداد إن لم يكن في ما يُحسّ فلابدّ أن يكون في ذرّاته لأنّ الامتداد لا يمكن أن يتحقّق من اللاامتداد و أيضاً يستفاد من مبانيهم أنّ الخلاء الوجودي مُحالٌ، فالأقطار الّتي كانت بين الذرّات مملوّةً من الموادّ الجسمية و إن كانت متفاوتة لما رُئِي من قبل.

الثاني: أنّ الجواهر المادّية بحسب حركاتها الجوهرية تتحرّك إلى الصور النوعية المركّبة من أضعف الجواهر المعدنية إلى أعلى الحيوانات حتّى تصل إلى أُفق الإنسان، و هي الصعود و العروج بعد النزول و الهبوط، و هي حركة شوقية كمالية إلى مبدئها، و بها و بما بعدها يتحقّق غاية الخلقة و يترتّب آثار

---

١. الأسفار، ج ٥، ص ٣٤٦.

٢. الأسفار، ج ٥، ص ٣٤٧.

٣. الكافي، ج ٨، ص ١٧٧؛ من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص ٣٨٠.

الحكمة و العناية؛ إلّا أنّا لا نقول إنّ كلّ ما وصل إلى الصورة المعدنية يصل إلى الصورة النباتية و هي بعينها تصل إلى الصورة الحيوانية ثمّ الإنسانية، لا، بل نقول إنّ كلّ ما وصل إلى الصورة الإنسانية لابدّ أن يمرّ بالمراتب العنصرية و المعدنية و النباتية و الحيوانية كلّها بحركات جوهرية متّصلة و كلّ ما وصل إلى الصورة الحيوانية لابدّ أن يمرّ المراتب العنصرية و المعدنية و النباتية، و هكذا في النبات و المعدن.[١]

الثالث: أنّ الموادّ تقبل الصور متّصلاً متكاملاً[٢] من واهب الصور و هو العقل المفارق.[٣] و هي إذا استعدّت لصورة كمالية بضعف الصورة الموجودة و فتورها حدثت صورة أخرى بعد زوال الأولى.[٤] فجميع ما كانت يصدر من الصورة السابقة الزائلة من الأفاعيل و الانفعالات و اللوازم و الآثار، تصدر من هذه الصورة اللاحقة الكمالية مع أمور زائدة تختصّ باللاحقة، لأنّ نسبتها إليها نسبة التمام إلى النقص.[٥]

الرابع: أنّ كلّاً من الصور السابقة معدّة لوجود الصورة اللاحقة، ثمّ بعد وجود اللاحقة تنبعث عنها و تتقوّم بها في الوجود؛ فما كانت من الأسباب و الشرائط و المعدّات أوّلاً، صارت أمثالها من القوى و التوابع و الفروعات أخيراً، و تكون الصورة الأخيرة مبدأً للجميع و رئيسها و هي القوى و الخوادم.[٦] فالصورة السابقة زائلة بمعنىً و باقية بمعنىً آخر،[٧] زائلة بشخصها و باقية بنوعها

---

١. الأسفار، ج ٨، ص ٥.
٢. الأسفار، ج ٩، ص ٩٦.
٣. الأسفار، ج ٨، ص ١٤٧ و ٣٩٦ و ٣٩٨.
٤. رسالة اتّحاد العاقل و المعقول، ص ٢٨.(مجموعه رسائل فلسفى صدرالمتألهين، ص ٨٨)
٥. الأسفار، ج ٥، ص ٣٢٨ ؛ ج ٨، ص ١٤٨.
٦. الأسفار، ج ٢، ص ٣٥-٣٦.
٧. المسائل الكاشانية، ص ١٩. (مجموعه رسائل فلسفى صدرالمتألهين، ص١٤١)

أو جنسها مع الصورة اللاحقة،[1] و بتعبير آخر: زائلة بنحو «بشرط لا» و باقية بنحو «لا بشرط».[2]

الخامس: أنّ الصورة اللاحقة الكمالية تشتمل على الصور السابقة و كمالاتها على نحوين:

الأوّل: بنحو الكثرة في الوحدة و هو مقام استهلاک الصور فيها و هو صورتها البسيطة.

الثاني: بنحو الوحدة في الكثرة و هو مقام تفصيل القوى و تشعّبها.

فإنّ الشيء يعرّف في الاعتبار الأوّل بصورتها الأخيرة فقط و ذكرُ الأجناس و الفصول - الّتي كانت مندمجة فيها - بمنزلة زيادة الحدّ على المحدود و كتعريف الشيء باللوازم، فإنّ الصورة البسيطة لا جزء لها، و في الاعتبار الثاني يجب ذكر جميع أجناس الشيء و فصوله بمنزلة أجزاء الحد.[3] و هذا الأمر أصل نافع في كثير من المواضع، من جملتها تحقيق مسأله التوحيد.[4]

---

١. الأسفار، ج ٨، ص ٢٥ و ١٧ و ١٤٤ و ١٤٨.

٢. الأسفار، ج ٨، ص ٤٩-٥١؛ و الأسفار، ج ٢، ص ١٧٥ و ص ١٧٦ حاشية المحقّق السبزواري.

٣. الأسفار، ج ٩، ص ١٨٧.

٤. رسالة المزاج، ص٢٣. (مجموعه رسائل فلسفى صدرالمتألهين، ص ٣٩١)

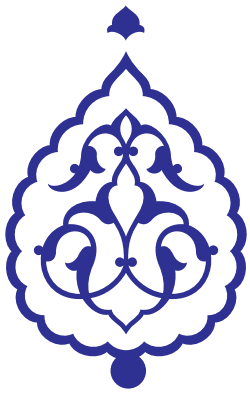

الفصل الثاني
في وجود النفس و حقيقتها و أقسامها

الصور – و هي مبادئ الآثار و الافعال – قسمان: قسم يفعل فعله على وتيرةٍ واحدةٍ كالصور العنصرية و المعدنية، و هي الصورة غير النفسية؛ و قسم يفعل لا على وتيرة واحدة عادمةً للإرادة، فهو إمّا يفعل على وتيرة واحدة مع الإرادة و هي النفس السماوية و إمّا يفعل لا على وتيرة واحدة و هي النفس الأرضية، و هي ثلاثة أقسام: النباتية و الحيوانية و الإنسانية، تدلّ على وجود كلّ قسم آثارُه الّتي تنتهي إلى مبدإٍ في الشيء جوهري[1] غير مشترك بين الأجسام كلِّها. فإنّ التغذية و التنمية و التوليد للمثل تدلّ على وجود مبدإٍ جوهري غير المادّةِ[2] و الجسميةِ المشتركة، و هي النفس النباتية و هكذا في النفس الحيوانية و الإنسانية.[3]

و يمكن أن تحدّد النفس في الكلّ بأنّها: كمال أوّل لجسم طبيعي آلي؛ فهاهنا قيود:

---

١. لأنّ كلّ ما بالعرض ينتهي إلى ما بالذات.

٢. لاشتراكها و لأنّها قابلة لا فاعلة.

٣. الأسفار، ج ٨، ص ٦.

الأوّل: أنّها «كمال»، لأنّ الكمال ما به يخرج الشيء عن القوة إلى الفعل و النفس ما به تخرج المادّة عن القوة إلى الفعل؛ فهي كمال لها.[1]

الثاني: أنّها «كمال أوّلُ» الّذي يصير النوع به نوعاً يتبعه الكمالات الثانية الّتي لا يحتاج النوع في أن يكون نوعاً بالفعل إلى حصولها. فالحيوان بالفعل حيوانٌ و إن لم يتحرّک بالارادة بالفعل، كما أنّ الطبيب طبيب و إن لم يعالج أحداً. فالنفس كمال أوّل لنوعه الجوهري.

الثالث: أنّها «كمال أوّل لجسم طبيعي»، فهي كمال منوّع للجسم الطبيعي لا غيره من العقول و الأعراض و الأجسام الصناعية كالسفينة و المدينة، فإنّ الرّبان و الملک ليسا نفساً لهما و إن كانا كمالاً لهما.[2]

الرابع: أنّها «كمال أوّل لجسم طبيعي آلي»، تخرج به الصور الّتي فعلها في المادّة من غير توسّط قوّة أخرى؛ فذاتها متحدّةالوجود بالمادّة منغمرة فيها كالصور الأُسطقسّية و المعدنية، فكأنّها هي مادّية محضة منقسمة بانقسامها؛ و أمّا ما يكون من الصور فعلها في المادّة باستخدام قوّة أُخرى تكون تلک الصورة كأنّها مرتفعةالذات عن سنخ المادّة، لها حظّ من التجرّد و لو قليلاً، فكلّ قوة لجسم طبيعي من شأنها أن تفعل فعلاً باستخدام قوّة أُخرى تحتها فهي نفس.[3]

فتبيّن بما تقدّم: أنّ النفس صورة[4] جوهرية[5] تتّحد[6] بالمادّة الثانية و تصير نوعاً جوهرياً مركّباً، فليست علاقتها مع البدن كعلاقة الرُبّان و الملک مع

---

١. شرح المنظومة، ج ٥، ص ١٧.
٢. الأسفار، ج ٨، ص ١٥-١٦؛ شرح المنظومة، ج ٥، ص ١٧-١٨.
٣. الأسفار، ج ٨، ص ١٦-١٧.
٤. الأسفار، ج ٨، ص ٣٨٣-٣٨٤.
٥. خلافاً للشيخ الإشراقي (الأسفار، ج ٨، ص ٢٦) و الدليل على جوهرية النفس مضافاً إلى ما سبق يطلب من: الأسفار، ج ٨، ص ٤٨.
٦. أي إنّ التركيب بين النفس و البدن تركيب اتّحادي؛ (الأسفار، ج ٨، ص ٢٥٠).